8

العندليب والمخابرات

(ومن هنا كانت المواجهة الخطرة بين صلاح نصر وعبد الحليم القوية مع الكاتب مصطفى أمين والفنانة شادية التي كانت تتعرض في ذلك الوقت لمضايقات من بعض أعوان صلاح نصر... وتأكد عبد الحليم من أن تليفونه تحت المراقبة...)

وكان اقتراب حليم من القيادة السياسية في مصر عقدى الخمسينيات والستينيات يثير عليه أشخاصًا وجهات عديدة، خاصة مع احتلاله لمكانة لم يسبقه إليها فنان، فها هو أنور السادات يقول: "إن محمد حسنين هيكل يجلس في عقل عبد الناصر، ويقرأ أفكاره ويعبر عنها في كتاباته.. وإن عبد الحليم حافظ يجلس في حنجرة عبد الناصر، ويوصل للجماهير ما يريد أن يقوله بأغانيه".

إلى هذا الحد كان كل مَن حول عبد الناصر يعلمون أهمية عبد الحليم بالنسبة له وبالنسبة للثورة المصرية. وبالطبع فإن عبد الحليم كان يعلم مكانته عند الرئيس، فكان يخاطبه مباشرة إذا ما تعرض لأية مضايقات، وكان لا يجد حرجًا في أن يكتب له الخطابات التي يئن فيها بالشكوى أو حتى يلمِّح، رغم أنه كان مسموحًا له بزيارة منزل عبد الناصر والجلوس مع أسرته وأولاده في أي وقت يشاء حليم. وها هو يكتب ذات يوم إلى الرئيس شاكيًا: "هناك يا سيادة الرئيس مَن يحاولون أن يباعدوا بيني وبين الغناء للثورة، وحينما أغني بستان الاشتراكية، فإنني أحاول التعبير عن أحلامك بصفتي واحدًا من جنودك".

وقد تأثر الرئيس عبد الناصر بهذا الخطاب تأثرًا بالغًا وقام بالاتصال تليفونيًّا بالعندليب فور انتهائه من قراءة الخطاب، وطمأنه وطلب منه ألا يهتم بشيء قدر اهتمامه بصفته وبفنه. ولم تكن علاقة عبد الحليم بالسلطة قاصرة على علاقته بالرئيس جمال عبد الناصر، بل إنه ارتبط بعلاقات صداقة مع عدد كبير من القادة والمسئولين، ومنهم المشير عبد الحكيم عامر، وشمس بدران مدير مكتب المشير والرجل القوي حينئذٍ، حتى إننا نجد ضمن أوراقه ووثائقه الشخصية – وثائق العندليب – بطاقة من المشير تحمل اسمه وصفته: المشير عبد الحكيم عامر – نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة، ومدوَّن عليها عبارة

"مع أطيب الأمنيات بالشفاء العاجل".. وهي مجاملة رقيقة تعبر عن مكانة العندليب عند مرسل البرقية.

في حين أن صلاح نصر رئيس المخابرات العامة وقتها لا يرتاح إلى عبد الحليم، ويبدو أنه كان يضايقه هذه الصلة المباشرة بين عبد الحليم والرئيس عبد الناصر، وكان يرى أن عبد الحليم أخذ حجمًا أكبر من حجمه – لاحِظوا النظرة القاصرة إلى الفن والفنان – وزاد الغضب والخطر على عبد الحليم عندما حاول رئيس المخابرات – صلاح نصر – تكليف عبد الحليم حافظ ببعض العمليات للحصول على معلومات من شخصيات رفيعة المستوى لصالح جهاز المخابرات.

فيما كان عبد الحليم يرى أن هذا الدور ليس أبدًا هو الدور الذي يجب أن يلعبه الفنان، خاصة إذا كان فنانًا له مكانته الرفيعة ومصداقيته عند الملايين من معجبيه.

ومِن هنا كانت المواجهة الخطرة بين صلاح نصر وعبد الحليم حافظ، وزادها سوءًا علاقة عبد الحليم القوية بالكاتب مصطفى أمين والفنانة شادية التي كانت تتعرض في ذلك الوقت لمضايقات من بعض أعوان صلاح نصر، بينما قصة الأستاذ مصطفى أمين معروفة بين اتهامه بالعمالة والتبرئة منها، وتأكد لعبد الحليم أن تليفونه تحت المراقبة، وأن أغانيه أصبحت قليلة الإذاعة، وعن طريق شمس بدران التقى عبد الحليم بالمشير عامر، بناءً على نصيحة من عبد الوهاب الذي قال له: إن أردتَ اختصار الطريق فاطلب مِن المشير أن يحدد لك موعدًا عاجلاً مع عبد الناصر، ونفّذ عبد الحليم النصيحة بحذافيرها، وفي اليوم التالي لمقابلته للمشير جاءه تليفون عند الظهر وقال له المتحدث: أنا جمال عبد الناصر!

ويحكي عبد الحليم في مذكراته ما حدث بعد ذلك قائلاً: ".. وارتجفتُ ووقفتُ وقلتُ: أهلاً يا فندم.. ده كرم كبير من سيادتك.. فقال لي: اطمئن.. متاعبك في الإذاعة حاتنتهي فورًا.. وأنا سمعت إنك زعلان لأن أغانيك لا تذاع بالشكل الكافي وده مش معقول.. إنت ثروة قومية يا عبد الحليم.. فقال عبد الحليم والدموع تملأ عينه: مش عارف أشكر سيادتك إزاي لاهتمامك رغم مشاغلك الكبيرة، فضحك الرئيس وقال لي: بس حافظ على صحتك.. وأنا رأيي إنك تتجوز علشان حد يرعاك وياخد باله منك.. فقلت – عبد الحليم – أوامرك يا فندم! فضحك عبد الناصر وقال: الجواز مش بالأوامر، لكن أنا بتمنى لك السعادة".

ولكن لم تهدأ المضايقات لعبد الحليم، بل إن أحد الأشخاص جاءه ذات يوم قائلاً له: أنا باحذّرك يا عبد الحليم أنهم لن يسمحوا لك بتجاوز الخطوط الحمراء في علاقتك بعبد الناصر، وفي تلك الأثناء لاحظ أن المشير عامر بدأ يضيق به بعد أن لاحظ ازدياد حب عبد الناصر له، في حين كان المشير أكثر ميلاً للسيدة أم كلثوم، كما أن علاقته كانت قوية من صلاح نصر نفسه! واستغل صلاح نصر صداقة عبد الحليم مع مصطفى أمين وحاول إفساد علاقة الرئيس عبد الناصر بعبد الحليم على اعتبار أن مصطفى أمين كان متهمًا في ذلك الوقت بالتخابر لحساب المخابرات الأمريكية، خاصة أن حليم كان صديقًا وفيًّا لأصدقائه وكان يدافع عن مصطفى أمين متحديًا الجميع، وأعدّ صلاح نصر مجموعة من التقارير تشير إلى أن ثمة جلسات تتم في منزل عبد الحليم وتعادي النظام، بالإضافة إلى تقارير أخرى تشير بأصبع الاتهام إلى علاقة عبد الحليم بأمراء سعوديين في وقت كانت العلاقات فيه متوترة بين مصر والمملكة العربية السعودية، وطلب عبد الحليم بعناد أن يدلي بشهادته في قضية الأستاذ مصطفى أمين فقد كان يعلم أن اتصالات مصطفى أمين بالأمريكان تتم بعلم الرئيس عبد الناصر شخصيًّا، ورفض صلاح نصر ذلك بشدة.

وأثيرت حملة منظمة ضد عبد الحليم استغلوا فيها انشغاله بالقضية التي ثارت وقتها حول زواجه من الفنانة سعاد حسني – وهي القضية التي لم تحسم حتى هذه اللحظة – ورددوا أن عبد الحليم انشغل بسعاد حسني عن مهمته في الغناء للثورة.

وبدا أن الحملة هدفها الأول هو القضاء على عبد الحليم فنيًّا ونفسيًّا!

وأبلغ عبد الحليم صديقه شمس بدران بأن تليفونه مراقب، وفي اليوم التالي تأكد الرئيس عبد الناصر بنفسه من صدق المعلومة وأمر برفع المراقبة عن (صوت) الثورة! وهكذا كلما اشتدت المضايقات والمخاطر على العندليب، لجأ إلى قمة هرم السلطة – ممثَّلاً في الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًّا – لينقذه بقرار جمهوري شفهي! ولذلك جاءت رسالة الرثاء التي كتبها عبد الحليم حافظ للزعيم عبد الناصر يوم وفاته مؤثرة وعميقة المعاني.. ولنقرأ برقية عبد الحليم في رثاء الزعيم: "يا زعيمنا العظيم..

بعد أن استرجعت أول أنفاس من هول صدمة رحيلك عنا، طلبوا مني أن أكتب كلمة عنك، أحس أن هناك سدودًا توضع في طريق جيل الفنانين الذي تربى على مبادئك وشرب

منها وآمن وعمل بها.. وكنتَ يا زعيمنا العظيم تشير لنا كيف نتخطى هذه السدود دون أن نصاب بجرح ولو بسيط.. ودون أن نصيب أيضًا أحدًا ممن يقومون بوضع هذه السدود في طريق تقدم جيلك من الفنانين.. كنتَ تقول إن هذا صراع الحياة.. لا تخافوا.. تقدموا.. وقدموا كل ما عندكم من فن.. إنني يا سيدي الرئيس الحبيب.. يا أغلى ما في الحياة بمصر والعروبة.. والشرق.. إنني سأحمل مبادئك على صوتي.. أرددها مدى وجودي في كل مكان في العالم.. كما كنت أفعل دائمًا.. فأنتَ باقٍ في نبضي وكياني.. ودمي.. أنت وكل مبادئك العظيمة الخالدة.. رحم الله روحك الطاهرة، وأعان مصر والعرب".

.....

ورحم الله عبد الحليم حافظ.

* * *